رفقا بطلاب العلم يا طلاب العلم

من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على طلبة العلم والظواهر الجميلة التي شاعت بينهم: سهولة النقاشات العلمية وانتشارها بين المشتغلين بطلب العلم.

فقد بدأت هذه الظاهرة مع المنتديات والمواقع، ثم توسعت وتعمقت مع ظهور الفيس بوك وقروبات الواتس وغيرها.

والمتابع لتلك النقاشات لا يحصي عدد الفوائد التي حصّلها، ولا قدر المسائل العلمية التي حرّرها، ولا حجم النفع المعرفي الذي أفاده منها.

ولكن في الوقت نفسه يجد المتابع عددا من السلبيات التي تحزن القلب ويضيق لها الصدر، وتجعل المحب لطلبة العلم مكتئبا حزينا، ذلكم بسبب كثرة ما يقع بين طلبة العلم في أثناء النقاش من خصومات واتهامات شديدة، وما يقع بينهم من مقاطعات وأمور لا تليق بالمسلمين عموما ولا بطلبة العلم خصوصا.

وهذه الأمور المحزنة ليست خاصة بالنقاشات في تلك المواقع، وإنما اتسعت فشملت النقاشات حول الأبحاث والمقالات العلمية المطروحة في الساحة الفكرية.

وانتشار تلك السلبيات في ساحاتنا العلمية ووقوع عدد من طلبة العلم فيها يدعونا إلى أن يذكّر بعضنا بعضا بما ينبغي لنا الأخذ به، ويجعلنا نصرخ في نوادينا: **رفقا يا طلاب العلم بطلاب العلم**.

ومن أهم ما ينبغي لطلبة العلم أن يحرصوا عليه في مثل هذه الحال:

الأمر الأول: تقديم حسن الظن، فالخائض في تلك النقاشات أو المتابع لها يقف على جُمل، ربما يفهم منها معنى لا يحبه أو ينقدح في ذهنه أمر لا يريده القائل، فينبغي له ألا يبادر إلى اتهام أخيه المسلم، وإنما يحمل الكلام على حسن الظن قدر المستطاع.

ولنتذكر دائما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءًا، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجا"[1].

---

[1] الآداب الشرعية، ابن مفلح (47/1).

ولنتذكر دائما أن كثيرا من الناس قد لا يحسن التعبير عن مراده مع سلامة قلبه، ولنتذكر أيضا أن التعبير عن الأفكار بالكتابة أصعب بكثير من التعبير عنها باللسان، وهذا يدعونا إلى توسيع دائرة حسن الظن كثيرا.

ومما يدخل في حسن الظن تلمس الأعذار للمسلم قدر الاستطاعة، لا تدري لعل أخاك المسلم حين كتب ما كتب أو قال ما قال كان غاضبا أو عنده ما يكدر عليه خاطره أو كان ناسيا أو ذاهلا أو عاجزا عن التعبير، فليس بالضرورة أن كل من قال كلاما أو كتبه يعد قاصدا له مفكرا فيه معدا له بشكل جيد.

كثير من الناس لا يحسن التعبير عن أفكاره، وكثير ممن يحسن التعبير عن أفكاره لا يحسن النقاش حولها.

الأمر الثاني: اختيار الألفاظ والجُمل، فالخائض في خطاب الناس ونقاشهم ينبغي له أن يختار من الألفاظ أجملها، ومن التراكيب ألطفها، ومن الكلمات أرقاها وأعلاها.

فالنقاش فيه قدر من المخاصمة والمحادة، وهو في حد ذاته مدخل للشيطان ليُدخل في النفوس ما يدخل، فجميل جدا أن يقطع المسلم الطريق على الشيطان، فيعبر عن أفكاره وما يقدمه من نقاش لأفكار غيره بتعابير لطيفة، وتراكيب رقيقة، وبجمل تحمل معاني اللين واللطف والرفق.

إن من أجمل ما يتزين به المسلم في مجالسه ونقاشاته العلمية الالتزام بالرفق واللين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه"[2].

هذا حكم من النبي صلى الله عليه وسلم عام في كل شيء، فالرفق واللين زينة المسلم في حياته وتصرفاته وفي كلامه ونقاشاته.

ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"[3]، فالتزام المسلم بالرفق ليس زينة له فحسب، وإنما عبادة من أجمل العبادات إذا استحضر النية.

فمن يحرم الرفق فإنه حُرم زينة من أعظم ما يتزين به المرء، وحُرم عبادة من أرقى ما يتعبد به المسلم،

---

[2] رواه مسلم (2594).

[3] رواه البخاري (6927)، ومسلم (4027).

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من يُحرم الرفق يُحرم الخير"[4].

تأمل طويلا فما يصدر من إخوانك المسلمين من كلمات أو تصرفات محتملة؛ فإنها ليست أعظم جُرما من ادعاء فرعون بأنه رب العالمين، ومع ذلك قال الله تعالى لموسى وهارون﴿ ﴾ [طه:44].

وما يقع من إخوانك من كلمات محتملة لن تكون أعظم وقعا على النفس من رجل دخل المسجد ثم أخذ يبول فيه، ومع ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "لا تزرموه –فنهاهم أن يتعرضوا له–"[5]، وقال: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"[6].

الأمر الثالث: التثبت والتأكد، فمع اشتداد الحوارات والنقاشات يكثر النقل للأخبار والأحوال، وكثيرا ما يقع فيها التوسع وعدم الضبط في النقل، فمن الواجب على المسلم ألا يتبنى كل ما يُنقل إليه عن إخوانه المسلمين، وإنما يجب عليه أن يتثبت ويتأكد حتى يصل إلى العلم الذي يدين الله به، ويعلم أنه يبرئ ذمته أمام الله تعالى إذا وقف بين يديه يوم القيامة وسأله: لماذا نسبت إلى فلان ما نسبت من الأقوال والاعتقادات؟

إن الواحد منا إذا تذكر وقوفه بين يدي الله تعالى وحيدا فريدا خائفا، وتذكر أنه سيُسأل عما ينسبه إلى إخوانه المسلمين من أقوال واعتقادات؛ حينها سيعلم خطر ما سيقدم عليه وأثره في إيمانه.

والغريب حقا أن كثيرا من طلبة العلم يتورع عن أن ينسب إلى الناس شيئا في أعراضهم أو أموالهم، ولكنه لا يتورع عن ذلك فيما يتعلق بالمقالات والاعتقادات، وهذا خلل كبير؛ فإن حال المقالات والاعتقادات أعظم من حال الأموال والأعراض في كثير من الصور.

يقول ابن تيمية: "الحكم بين الناس في عقائدهم وأقوالهم أعظم من الحكم بينهم في مبايعهم وأموالهم"[7]، ويقول ابن الوزير: "الحكم على الأديان آكد من الحكم على الأموال"[8]، فإذا كان الأمر كذلك فإن ما يجب لها من الاحتياط والتثبت أقوى وأشد.

---

(4) رواه مسلم (2592).

(5) رواه البخاري (6025)، ومسلم (284).

(6) رواه البخاري (220).

(7) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (7/464).

(8) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ابن الوزير (57).

كم من خبر نُقل إلى آخرين ورتبوا عليه أمورا في حق إخوانهم المسلمين، ثم اكتشفوا أنه ليس صحيحا، وكم من معلومة نُقلت وترتبت عليها أحكام في شأن عدد من طلبة العلم، ثم اكتشف المرتّبون بأن ما نقل إليهم ليس صوابا.

فالواجب على الحريص على دينه وعلى وقوفه بين يدي الله وعلى حقوق إخوانه المسلمين أن يتثبت فيما يُنقل إليه من أخبار ويسعى إلى التأكد منها.

الأمر الرابع: الابتعاد عن الغِيبة، فمن أخطر ما يصاحب النقاشات الواقعة بين طلبة العلم أو يأتي فيها اتساع دائرة الغيبة، فترى المتفقين في الرأي أو المتقاربين في المواقف يتحدثون فيما بينهم بما يعد قدحا وذما لأخيهم المسلم الذي يتناقش معهم، وهذه غيبة محرمة في الشريعة.

إن لكل صنف من الناس نوعا من الغيبة ينتشر بينهم، والغيبة المنتشرة بين طلبة العلم وقوع بعضهم في أعراض بعض لأجل النقاشات العلمية التي تدور بينهم، فتراه يستبيح عرض أخيه المسلم الذي اختلف معه في الرأي، فيذكر من الصفات التي تقدح فيه وفي عرضه ما الله به عليم.

والمؤسف حقا أن بعض طلبة العلم يجمع مع الغيبة السخرية والاستخفاف بإخوانه المسلمين، فيجمع ظلمات بعضها فوق بعض، ويبوء بإثم الغيبة وإثم السخرية والاستخفاف.

إن كثيرا من المشكلات والمقاطعات التي تقع بين طلبة العلم تكون بسبب تساهلهم في الوقيعة في الناس، فإنك لا تكاد تجد قوما يستسهلون الغيبة والوقيعة في الناس والاستخفاف بهم إلا وقعت الفرقة والمقاطعات بينهم، يقول الفضيل بن عياض: "إذا ظهرت الغيبة ارتفعت الأخوّة في الله"[9].

كم يعاني عدد من طلبة العلم من شؤم هذا الفعل الشنيع الذي وقعوا فيه، فأذهب عليهم حسناتهم، وأذهب عليهم البركة في الوقت والجهد والعلم، وأذهب عليهم صداقاتهم بإخوانهم، تجد الواحد ممن ابتُلي بالوقيعة في إخوانه له سنوات طويلة في طلب العلم، بذل فيها جهدا ووقتا طويلا، ومع ذلك لم يحصّل شيئا ذا بال منه، وما علم أن ذلك قد يكون بسبب ما وقع فيه من شؤم الغيبة لإخوانه المسلمين.

اختلافك مع أخيك المسلم في مسألة أو مسألتين أو في قضية منهجية هو متأول فيها لا يبيح لك عرضه، ولا اغتيابه ولا السخرية منه، فالأصل أن الكلام في ذم الناس محرم ولا يجوز إلا للحاجة ويجب

---

[9] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني (96/8).

أن يقدر بقدرها المناسب لها.

الأمر الخامس: الالتزام بالألفاظ العلمية، فالخائض في النقاش مع إخوانه يجب عليه أن يستعمل التراكيب العلمية المحايدة، وعليه أن يبتعد عن التراكيب المتضمنة للقدح في نيته أو قصده، أو المتضمنة لتجهيله وتسخيف قوله، أو الاستخفاف بموقفه أو التقليل من قدره ومكانته.

فبدل أن تقول في مناقشة القول الذي يقرره أخوك: هذا القول باطل أو سخيف أو لا يقوله إلا جاهل، يسعك أن تقول: هذا القول فيه نظر وتردد. وإن كان ظاهر الخطأ يمكن أن تقول: هذا القول غير صحيح، أو الصحيح خلافه، أو نحوها من الجمل العلمية، التي لا تتضمن انتقاصا لأخيك، وإنما فيها الحكم على ما شارك به من أفكار بما يناسبه من الحكم، فهذه هي جادّة العلماء في مؤلفاتهم ونقاشاتهم، فمما هو شائع في كتب الفقه المقارن وغيره استعمال "غير صحيح" في الحكم على الأقوال الاجتهادية.

ويجب على صاحب القول المنقود أن يتقبل هذه الألفاظ العلمية المجردة، ويتحمل وقعها على نفسه؛ لأن النقاش العلمي قائم على الأخذ والرد، والتصويب والتخطئة، والموافقة والمخالفة، وكما رضي بأن ينقد غيره ويحكم على أقوالهم بالخطأ وعدم الصواب، فإنه يجب عليه أن يرضى ذلك لنفسه ويتقبله.

فإذا قيل عن قول اجتهادي تتبناه وتنتصر له بأنه غير صحيح، أو أن الصحيح خلافه، فلا تتضجر من ذلك، فهذه الألفاظ مما اعتاده العلماء بكثرة في تصحيحهم وترجيحهم في المسائل الاجتهادية.

الأمر السادس: التركيز على مناقشة الأفكار، من الأمور التي يجب على طالب العلم الالتزام بها أن يركز على القول في ذاته، فيحكم عليه بما يراه من مقتضيات الأدلة، وعليه أن يبتعد عن إصدار الحكم على إخوانه المختلفين معه، فهذا أنفع للعلم وأثرى للمعرفة، وهو دليل نضج وعقل، وفي الحكمة المشهورة: "العقول الكبيرة تُناقش الأفكار، والعقول الصغيرة تُناقش الأشخاص".

ومع جمال هذه الحكمة فإنها ليست على إطلاقها، فمناقشة الأشخاص ليست خطأ دائما وفي كل الأحوال، ولكن البحث هنا في تحديد الأولى والأحرى، وما ينبغي التركيز عليه.

ومن موجبات التركيز على مناقشة الأقوال: أن الحكم على القول أسهل وأسلم بكثير من الحكم على القائل؛ فالحكم على القول لا يحتاج إلى معرفة الأدلة والأصول المؤثرة، وأما الحكم على القائل فيحتاج مع ذلك إلى معرفة حاله: علما وجهلا، فهما وتأولا، إدراكا ونسيانا، وعدد من المعاني المحيطة

بالمكلف.

ثق تماما أنك في كثير من الأحيان لست في حاجة إلى الحكم على شخص القائل، وإنما يكفيك أن تحكم على القول بكونه غير صحيح بما لديك من أدلة، فلماذا تترك هذه الخانة الصحيحة السليمة وتنتقل إلى الحكم على إخوانك بغير مسوغ لذلك؟! فالأصل أن المسلم مطالب بالحكم على القول، وليس مطالبا بالحكم على القائل إلا عند الحاجة إلى ذلك، لأن الأصل في المسلم السلامة.

فالتركيز على مناقشة الأقوال ونقدها أولى وأوجب؛ لكونه أنفع للعلم، ولكونه أسهل وأيسر، ولكونه أسلم وأوفق، ولكونه أقرب إلى مقاصد الأخوة الإيمانية.

الأمر السابع: الاقتصاد في الحكم، ومعنى ذلك: أن طالب العلم إذا حكم على قول من الأقوال التي يتبناها أحد إخوانه بالخطأ أو بالجهل، فليس معنى ذلك أن يحكم على كل أقواله بذلك، ولا أن يحكم عليه بالجهل والانحراف.

من المؤسف حقا أن عددا من طلبة العلم إذا خالف أحد إخوانه في مسألة أو مسألتين ورأى أنه جهل فيها أو أخطأ؛ يجعل ذلك مسوغا له للحكم عليه بأنه جاهل أو ضعيف في البناء العلمي، أو يتجاوز ذلك للحكم على نيته وقصده، وكل ذلك توسع لا مسوغ له.

فكم من طالب علم مميز أخطأ في مسألة أو مسائل ولم يوفق لإدراك الصواب فيها، بل كم من عالم قرر قولا غريبا في مسألة أو أكثر، وانتقده العلماء عليها، ولم يجعلوا ذلك مسوغا للحكم عليه بالجهل أو نقصان العلم أو انخرام البناء العلمي.

وفي التنبيه على هذا المعنى النبيل، وفي كون مخالفته فيها تشبه بأهل البدع يقول ابن تيمية: "الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة، هم أيضًا مجتهدون؛ يصيبون تارة، ويخطئون تارة، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه؛ أحب الرجل مطلقًا وأعرض عن سيئاته، وإذا علم منه ما يُبْغِضه؛ أبغضه مطلقًا وأعرض عن حسناته، وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج والمعتزلة والمرجئة"[10]، ويقول الذهبي: "ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخِّيه لاتباع الحق؛ أَهْدَرْناه، وبدعناه؛ لقل مَنْ يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه"[11].

([10]) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (15/11).

([11]) سير أعلام النبلاء، الذهبي (376/14).

الأمر الثامن: التركيز على مقصد البيان، ومعنى ذلك: أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون قصده من النقاش والنقد لأقوال إخوانه بيان الحق ورحمة الخلق، والسعي إلى النصح والهداية، وقطع الطريق على الشيطان وحزبه.

يمكن للمسلم أن يكره القول ويبغضه أشد البغض، ولكن في الوقت نفسه يرحم أخاه ويسعى إلى إعانته في ترك ذلك القول والإقلاع عنه، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما سمع رجلا يلعن رجلا آخر أقيم عليه الحد قال: "لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم"[12].

فإخواننا المسلمين مهما أخطئوا فإن عندهم أمورا توجب حبهم ونصحهم وتمني الخير لهم، فهم يؤمنون بالله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، فلماذا نسعى إلى إعانة الشيطان عليهم؟

يقول ابن تيمية: "الرد على أهل البدع من الرافضة وغيرهم إن لم يَقصد فيه بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم، لم يكن عمله صالحا"[13].

إن هذا التقرير من ابن تيمية يعد نبراسا يحاكم إليه المسلم نقاشاته وما يقدمه من نقد لإخوانه، هل حين يقوم بنقدهم يقصد بيان الحق وهداية المسلم ورحمته، أم يقصد التشفي لنفسه وتغليب حظوظها وإسقاط من يخالفه؟!

ومن المعاني الجميلة التي ينبغي استحضارها في أثناء النقاشات العلمية أن يكون قصد المناقش بيان قوله بدليله والجواب عما يقدح فيه من المعارضات، فإذا وصل المناقش إلى هذه المرحلة فقد أحسن غاية الإحسان، فليس من شرط النقاشات أن يغير المحاور رأيه مباشرة ولا أن يتبنى أقوال المخالفين له.

د. سلطان العميري.

---

(12) أخرجه أحمد (4168)، وحسنه شعيب الأرناؤوط بشواهده.

(13) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (239/5).